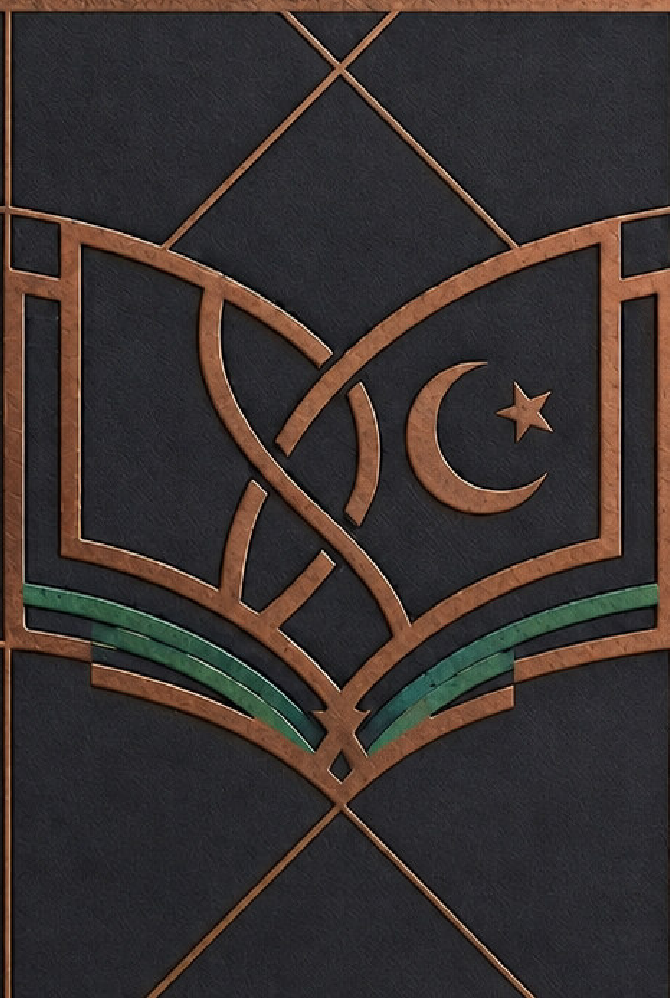
لمحات بلاغية في ثلاثين آية قرآنية

دكتور

حسام الدين طاهر عبد المنعم

دكتوراه في الآداب - جامعة الإسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد

فيقول تعالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)، هكذا يعرف الله عز وجل بكتابه الكريم، فقد أنزله هداية للمتقين، يرسم لهم منهج حياتهم، ويكون لهم مصباحا يستضيئون بنوره في ظلمات الحياة ويتمسكون بحبله وسط مغرياتها وفتنها، ولا يتيسر للعبد المسلم التحقق بهذه المعاني العالية التي هي المقصود الأسمى من نزول القرآن، والتي ينبغي أن تكون محل عناية المسلم وموضع اهتمامه، لا يتيسر له ذلك إلا بتدبر آيات القرآن الكريم والتفكر في معانيها والتأمل في إشاراتها وتوجيهاتها، لا بمجرد الاقتصار على تلاوتها وترديدها والاستماع عليها.

وقد تكررت الدعوة إلى تدبر القرآن الكريم في عدد من آياته البينات، فقال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)، وقال (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)، وقال (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون).

قال الآلوسي: " وأصل التدبر التأمل في أدبار الأمور وعواقبها ثم استعمل في كل تأمل سواء كان نظرا في حقيقة الشيء وأجزائه أو سوابقه وأسبابه أو لواحقه وأعقابه".

ولتدبر القرآن الكريم آلات ووسائل، تأخذ بيد المسلم إلى التعمق في فهم الآيات وتفتح له أبوابا واسعة من الفهم والتأمل لا يبلغها صاحب القراءة المتعجلة أو المكتفي بمجرد التلاوة الحرفية، وأولى هذه الآلات هي علوم اللغة العربية على اختلاف فروعها ومجالاتها، ودرة هذه العلوم وذروة سنامها هي (البلاغة)، وذلك لأن نظر البليغ أو دارس البلاغة يقع من آيات القرآن على أسرار من المعاني والدلالات لا تزال تتكشف له من طول التأمل وإعادة النظر، فيزداد إيمانا بأن هذا القرآن هو كلام الله، ويزداد فهما وإدراكا لمقاصده ومعانيه.

١

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

يصف الله عز وجل عباده المتقين في هذه الآية بأنهم قد تحققت فيهم صفتان عظيمتان، لا شك أنهما المقصود الأعظم لكل إنسان يبحث عن الحق ويلتمس سبيل النجاة، فالهداية في الدنيا والفلاح في الآخرة هما غاية ما ينشده صاحب الفطرة السوية، ومن ثم كانت هذه الآية خير تعقيب على ما ذكرته الآيات السابقة من صفات للمتقين، الذين هم المنتفعون بهداية القرآن بما يتحقق فيهم من الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق والإيمان بالقرآن وبما سبقه من الكتب الإلهية والإيمان بالآخرة.

والملاحظ أن الآية الكريم قد خالفت بين نظم الجزء الأول منها ونظم الجزء الآخر، فقد وصفت المتقين بأنهم (على هدى من ربهم) ثم أخبرت عنهم بأنهم (هم المفلحون)، ووراء هذه المخالفة ملحظ بلاغي يتجلى في التعبير القرآني (على هدى من ربهم)، دون (هم المهتدون) الذي ورد في سياقات أخرى، فهذا التعبير الذي نحن بصدده (على هدى من ربهم) يرسم أمامنا صورة حسية نرى فيها المتقين وقد تمكنوا من الهدى، وتجلت أمامهم معالمه، وذللت لهم أسبابه، فقد بلغوا غاية الهداية في حياتهم فلم تختلف عليهم السبل ولم تضطرب أمامهم المسالك، لقد عرفوا طريقهم وأدركوا غايتهم، فهم في حالهم تلك كمن يعتلي مطيته أو دابته يصرفها حيث يشاء، فلا تتأبى عليه ولا تمتنع عن إرادته. ولم تكتف الآية بوصف المتقين المذكورين في الآيات السابقة بأنهم (هم المهتدون)، وذلك لأن هذا الوصف وإن دل على كمال الهداية، فإنه لا يشير إلى النكتة المستفادة من استعمال حرف الجر (على) الدال على الاستعلاء والتمكن، ففي ذلك إشارة إلى أن الهدى

لم يكن عبئا على المتقين أو ثقلا تضيق به صدورهم، بل هو مطيتهم إلى سبيل النجاة، ووسيلتهم إلى بلوغ الفلاح في الآخرة.

وكأن في ذلك لفتة إلى أمر الإيمان بالغيب الذي هو ذروة العقيدة، فالإيمان بالله عز وجل -وهو أصل الإيمان وركنه الأعظم- داخل فيه، والإيمان بالآخرة -وهو ما اختتمت به الآيات صفات المتقين- داخل -هو الآخر- فيه، فلما جرت صفات المتقين في هذه الآيات على هذا النحو من الكمال الإيماني جاء الإخبار عن حالهم بهذه الصورة الاستعارية الدالة على تمكنهم من الهدى وأنه منهم بمنزلة المطية التي تحمل صاحبها إلى بلوغ الغاية التي لا يبلغها غيرهم ولو بشق الأنفس، فغايتهم هي الفلاح في الآخرة، وهذا هو الفلاح الحقيقي الذي يجب أن يتنافس فيه المتنافسون، ولذلك عبرت الآية عن فلاح المتقين بعبارة (وأولئك هم المفلحون)، فأعادت اسم الإشارة (أولئك) لزيادة الاعتناء بشأنهم والتشريف لحالهم، وأتت بالضمير (هم) فصلا بين المبتدأ والخبر لتأكيد نسبة الفلاح إليهم، وعرفت المفلحين بالألف واللام للدلالة على بلوغهم غاية الفلاح وذروته.

٢

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب)

يتضح في هذه الآية الكريمة خطاب الزجر والوعيد الذي يتخلل سور القرآن الكريم إيقاظا للقلوب الغافلة وتوبيخا لأصحاب الكبر والإعراض عن دعوة الحق، فتسجل عليهم الآية موقفهم المفتقر إلى أدنى درجات الحكمة، وتحذرهم من عاقبة ما هم عليه من اتخاذ الأنداد والشركاء من دون الله.

وتستهل الآية بالإشارة إلى هؤلاء المكابرين بتقديم الخبر (من الناس) على مبتدأه الاسم الموصول (من) وصلته (يتخذ من دون الله أندادا)، وفي هذا التقديم إشارة إلى التعجب من شأنهم، لأن الخبر المقدم هنا يدل في الأصل على فائدة غير مجهولة للسامع، إذ ليس المقصود من كونهم من الناس أنهم من غيرهم كالملائكة مثلا، بل المقصود التعجب من حالهم ، فتأخير المبتدأ هنا فيه تشويق للسامع لمعرفة ما يتم به الإخبار.

ويتضح ذلك بالالتفات إلى سياق الآية، حيث وردت عقب الحديث عن قوم انتفعوا بآيات الله في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ورأوا فيها دلائل وبراهين تدل على وحدانية الله، أما هؤلاء المكابرين فلم ينتفعوا من ذلك بشيء، ومضوا يتخذون مع الله آلهة أخرى.

وفي قوله تعالى (من دون الله) ملحظ بلاغي، إذ آثرت الآية التعبير عن اتخاذهم للشركاء مع الله بأنهم من دون الله، برغم أنهم أشركوها (مع الله) في العبادة والخضوع،

أي أنهم لم يتخذوها آلهة مستقلة عن الله، وكأن في ذلك إشارة إلى وضاعة هذه الشركة وهؤلاء الشركاء المزعومين، فهم دون الله وما كان ينبغي لهم أن يكونوا معه في شيء مما يستحقه من الطاعة والانقياد.

وبتأمل دلالة لفظ (أنداد) تتجلى قيمة التعبير به في هذا السياق، فالند هو الشريك المخالف، وهذه هي حقيقة الأنداد المزعومة لله، فهم مخالفون له في كبريائه وعظمته، ساقطون عن أن يعتبروا شركاء له في ملكه وسلطانه، وتلفت الآية إلى أن هؤلاء المشركين قد جعلوا لهذه الأنداد من الحب والخضوع والاتباع مثل ما كان ينبغي أن يجعلوه لله، ثم تأتي المقارنة بينهم وبين المؤمنين لتكشف عن أن حالهم مع هذه الآلهة مهما بلغ من الخضوع والطاعة فإنه لا يساوي حال المؤمنين مع الله، فهم (أشد حبا) وخضوعا واتباعا لمنهج الله.

ثم عقبت الآية على هذا الإخبار بخطاب الوعيد الشديد (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب)، وفي هذا الخطاب احتفت الدلالات البلاغية التي زادته جلالا ورهبة؛

فقد حذفت الآية الكريمة جواب الشرط (لو يري) لتزيد في تخيل الأهوال التي تنتظرهم والعاقبة السوأى التي تترقبهم.

وعبرت عن رؤية العذاب بظرف الزمان (إذ) الموضوع في الأصل للزمن الماضي، وفي ذلك إشارة إلى تحقق وقوع العذاب حتى كأنه حصل بالفعل.

وعطفت جملة (وأن الله شديد العذاب) على جملة (أن القوة لله جميعا) للمبالغة في تهويل الخطب وتفظيع الأمر، لأن اختصاص الله عز وجل بجميع القوة لا يلزم منه إنزال

العذاب بهم لأن القوي قد يعفو عن المسيء لقدرته عليه، لكنه في هذا المقام (شديد العذاب) فقطعت هذه الجملة المعطوفة احتمالية العفو التي قد تجول بخواطر هؤلاء المشركين.

٣

(إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء)

تعبر هذه الآية عن إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، وشمول علمه بكل موجود على أية حال يكون عليها، وقد سيقت الآية في افتتاح محاجة سورة آل عمران لوفد نصارى نجران، وكان مسألة ألوهية المسيح هي محور حديث السورة، فابتدأت بإثبات صفة العلم لله عز وجل على وجه من الإحاطة والشمول لا يمكن أن يتحقق لأي مخلوق. فهو تعالى لا يخفي عليه شيء يقع في ملكه، وليس ذلك لأحد إلا له، وهو تعالى يصور الناس في أرحام أمهاتهم كيف يشاء، ومن المستحيل أن يكون لأي أحد من البشر علم بحاله وقت أن كان جنينا في رحم أمه، وهذه الأمور التي لا ينكرها إلا مكابر تكاد تنطق بأنه تعالى (لا إله إلا هو العزيز الحكيم).

وقد تضافرت الخصائص البلاغية التي تجلي هذا المعنى في نظم الآية

فجاءت الآية في جملة خبرية اسمية لتقرير ثبوت هذا الأمر لله عز وجل وأنه لم يزل على هذه الصفة من العلم والإحاطة التامة بكل ما يجري في ملكه.

وجاء تأكيدها بـ(إن) متوافقا مع سياق المحاجة والجدل، وذلك لنفي شبهة الاشتراك في صفة العلم بين الله تعالى وبين أحد من خلقه، فإن النصارى لما ادعوا ألوهية عيسى عليه السلام أثبتوا له صفة العلم الإلهي بحجة إخباره عن بعض المغيبات، فرد عليهم القرآن عقيدتهم الباطلة وبين انفراد الله تعالى بإحاطة العلم.

وجاء لفظ (شيء) وهو في اللغة من الألفاظ الموغلة في التنكير ، ومن المقرر أن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، وقد تأكد هذا العموم على نحو من المبالغة بما في هذا اللفظ من إيغال في التنكير.

وتقدم الجار والمجرور على متعلقه (شيء) لتأكيد اختصاص الله تعالى بهذه الصفة على هذا النحو من الإحاطة التامة والشمول العام.

وورد الإطناب بقوله (في الأرض ولا في السماء)، للدلالة على كمال علمه تعالى، ولا يفهم من هذه العبارة تقييد علم الله تعالى بكونه محصورا في الأرض والسماء، بل المقصود كما قال الفخر الرازي "إفهام العباد كمال علمه، وفهمهم هذا المعنى عند ذكر السموات والأرض أقوى، وذلك لأن الحس يرى عظمة السموات والأرض، فيعين العقل على معرفة عظمة علم الله عز وجل، والحس متى أعان العقل على المطلوب كان الفهم أتم والإدراك أكمل".

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر،

وأولئك هم المفلحون)

يميل بعض المفسرين كالطبري والزمخشري إلى اعتبار (من) في هذه الآية للتبعيض، فيكون المقصود من الأمر في الآية أن تكون في الأمة جماعة مخصوصة تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد استأنسوا على ذلك بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات التي إذا قام بها بعض أفراد الأمة سقط عن الباقين.

وثمة وجه آخر في دلالة حرف الجر (من) ذكره كثير من المفسرين كالبغوي وابن عطية والزمخشري وابن الجوزي والرازي والبيضاوي والنسفي، قال ابن عطية في تفسيره: "وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين، إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، «ومن» لبيان الجنس قال: ومثله من كتاب الله، (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ومثله من الشعر قول القائل:

أخو رغائب يعطيها ويسألها ... يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

قال القاضي: وهذه الآية على هذا التأويل إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح، ففيها المعنى الذي يسميه النحويون، التجريد، .... ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة" .

والتجريد طريقة بلاغية معروفة في كلام العرب، وهو انتزاع صفة من شيء واعتبارها كيانا مستقلا عنه، تجري عليها ما يجري على أصلها من الخطاب والوصف وغير ذلك، فهم يقولون في الصديق الحميم مثلا: لي من فلان صديق حميم، فقد انتزعوا من هذا الرجل الموصوف بقوة الصداقة شيئا منفصلا عن ذاته على سبيل الادعاء أو المبالغة في الصفة، ويقول أبي علي الفارسي في توجيه هذا الأسلوب: "إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنى كامنا فيه، كأنه حقيقته ومحصوله، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردا عن الإنسان، كأنه غيره، وهو هو بعينه، كقولهم: لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد، ولئن سألته لتسألن منه البحر".

وواضح من هذا التوجيه البلاغي للآية أن المقصود بإخراج الأمر على هذا الأسلوب هو المبالغة في حث الأمة على الالتزام به والقوة في أخذه، حتى إن الخطاب الإلهي للمؤمنين قد ورد عقب هذه الآية بقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..) فقرن خيرية الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ذلك أقوى دلالة على أهمية هذا الأمر وعظمة موقعه في شريعة الإسلام.

٥

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما)

تظهر في هذه الآية الكريمة المفارقة الكبيرة بين ما يريده الله لعباده أن يكونوا عليه من الصلاح والاستقامة والتوبة والرجوع إلى الله عز وجل، وبين ما يسعى أصحاب الشهوات والأهواء أن يجعلوا المؤمنين عليه، ليستميلوهم إلى ما هم منغرسون فيه من الضلال والبعد عن منهج الله.

وقد عبرت الآية الكريمة من خلال خصائصها التركيبية عن هذا المعنى أتم تعبير، فكانت بلاغتها في إصابة الغرض المقصود بأوفى لفظ وأدق نظم، فجاءت درة كريمة وسط لآلئ سورة النساء.

ويتضح ذلك بتأمل سياق الآية بين سابقتها ولاحقتها، فقد أعقبت الآية قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم)، وفي هذه الآية تقدم الفعل (يريد) المسند إلى الله عز وجل، بخلاف الآية التي نحن بصددها، فقد تقدم المسند إليه (وهو لفظ الجلالة) على المسند الفعلي، وتقدم المسند الفعلي في الشق الآخر من الآية وهو قوله تعالى (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما)

وهذا التغاير في نظم الآيتين مما يسترعي نظر البليغ أو الواقف على أسرار بلاغة القرآن، فإن الآية الأولى لما كانت خالصة للحديث عن إرادة الله عز وجل -وهي إرادته التشريعية في هذا السياق- لم يقتض ذلك تقديم المسند إليه (وهو لفظ الجلالة) على المسند الفعلي (يريد)، لأن هذا التقديم يدل -بتأمل نصوص البلغاء والكلام العربي الفصيح- على

التخصيص، أي نفي الاشتراك بين الله عز وجل وبين غيره في إرادة تبيين الآيات للمؤمنين ونصب معالم الهداية وتشريع التوبة، والمقام هنا لا يقتضي التخصيص.

أما في الآية التي نحن بصددها فقد جاءت لتقارن بين ما يريده الله بعباده وما يريده أصحاب الشهوات، والمقصود بهم هنا المشركون وأهل الكتاب، حيث كان الأولون يدعون المسلمين إلى اتباعهم في نكاح أزواج الآباء، وكان الآخرون يدعون المسلمين إلى اتباعهم في نكاح الأخوات من الأب والعمات والجمع بين الأختين، وهذا التفسير لا يمنع أن يدخل في مفهوم الآية كل من يصدق عليه الوصف المذكور فيها (الذين يتبعون الشهوات) ولا يقتصر على المشركين وأهل الكتاب.

وهذه المقارنة تقتضي تخصيص الله عز وجل بإرادة التوبة، فهو وحده الذي يريد أن يتوب على المؤمنين، وليس هؤلاء المضلين الذين يسعون إلى إضلال المسلمين ويزينون لهم الباطل، ولذلك عادت الآية اللاحقة إلى تقديم الفعل لما كانت منصرفة إلى الحديث عن إرادة الله عز وجل وحده، فقال تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم).

ولم تغفل الآية أن تزيد في التحذير من اتباع أصحاب الشهوات، فم تقتصر على دلالة التخصيص المستفادة من تقديم لفظ الجلالة (والله يريد أن يتوب عليكم)، بل ختمت بالمبالغة في إظهار حقيقة ما يسعى إليه هؤلاء المضلون، فجاءت بالمصدر المؤكد، (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا)، ولم تكتف بذلك بل زادت هذا التأكيد بيانا بالمبالغة في وصفه بكونه (ميلا عظيما).

٦

(يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، إن الله يحكم ما يريد)

سارع بعض المشككين في بلاغة القرآن الكريم إلى اتهام هذه الآية بالتفكك، بحجة أن لا علاقة بين الوفاء بالعقود والمحرمات في مجال الطعام، ونفي العلاقة بين الأمرين أمر غير مسلم، بل من اليسير على المتدبر في سنن القرآن ومنهجه في التشريع أن يلمح العلاقة بينهما، فإن من دأب القرآن الكريم في تشريعاته أن يصل بينها وبين أصول كلية تنتظمها في سلك الإيمان، فالأمر بالصوم موصول بالتقوى في قوله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وكذلك الحج وشعائره (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ، والتحريم والتحليل في مجال الأطعمة موصول بالوفاء بالعقد، والعقد اتفاق بين طرفين ووفاء بما تعاقدا عليه، والعقد الذي بين الله تعالى والمؤمنين متضمن الالتزام بما أحله الله وحرمه، ولذلك فالعلاقة بين صدر الآية وما تلاها هي علاقة الإجمال والتفصيل، قال الفخر الرازي: إن الله تعالى "لما قرر بالآية الأولى على جميع المكلفين أنه يلزمهم الانقياد لجميع تكاليف الله تعالى، وذلك كالأصل الكلي والقاعدة الجملية شرع بعد ذلك في ذكر التكاليف المفصلة فبدأ بذكر ما يحل وما يحرم من المطعومات"

واستهلال السورة بهذا الأمر الجامع مناسب لمضمونها الذي عرض لعدة من التشريعات التعبدية كالأحكام المتعلقة بالأطعمة ما يحل منها وما يحرم، وأحكام الصيد في البر والبحر، والزواج من الكتابيات، والوضوء والغسل، والإشهاد على الوصية، وكلها أمور تعبدية تقوم في جوهرها على التزام المؤمن بعقد الإيمان بينه وبين ربه، وفضلا عما تضمنته

السورة من التشريعات والأحكام فاستهلالها بالوفاء بالعقود مناسب تماما لما عرضت له من نماذج الناقضين لهذه العقود والناكثين لعهدهم مع الله عز وجل، وهم أهل الكتاب الذين تناولت السورة جانبا من أخبارهم ودخلت معهم في جدل مطول، وعيرتهم بمخالفتهم لعهدهم مع الله، فقال تعالى يصف حالهم (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم) ، وقد استشرى الداء في أوصالهم ولم يكن لهم من وازع يذكرهم بعهد الله عليهم، لا فرق في ذلك بين عوامهم ورؤساهم، (وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون، لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون).

فالوفاء بالعقود محور رئيس تدور عليه آيات السورة، بدءا من فاتحتها ومرورا بما تضمنته من آيات، فهو بمنزلة الأصل الكلي الذي تتفرع منه ما اشتملت عليه السورة من تشريعات وأحكام

٧

(وقالوا لولا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر، ثم لا ينظرون)

تسرد هذه الآية واحدة من حجج المشركين الواهية التي اتخذوها منها ذريعة لرفض دعوة الإسلام والإعراض عنها، فإنهم أبوا أن يقبلوا رسالة الله من بشر مثلهم، حتى يعاينوا ملكا من السماء يصدقه فيها، وقد عبرت الآية عن دعواهم بأداة التحضيض (لولا)، وهو في اللغة طلب مصحوب برغبة قوية، وفي ذلك إشارة إلى شدة تعنتهم ولجاجهم بالباطل.

وهنا ملحظ بلاغي في إيثار الآية هنا أن يتعدى الفعل (أنزل) بحرف الجر (على)، وهذا بخلاف الآية الأخرى في سورة الفرقان (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا).

وعن الحكمة في اختيار (على) في سياق و(إلى) في سياق آخر تشير أقوال المفسرين إلى أن الفعل (أنزل) يتعدى بـ(على) إذا كان المنزل مخصوصا بالمنزل عليه، ويتعدى بـ(إلى) إذا كان الأمر المنزل غير مخصوص بالمنزل عليه، بل يشاركه فيه غيره، أو بمعنى آخر فإن التعبير: (أنزل على) فيه دلالة التخصيص، والتعبير (أنزل إلى) فيه دلالة الاشتراك ، ولذلك أوثر هذا الحرف في قوله تعالى (قل آمنا بالله وما أنزل علينا)، لما كانت الآية مصدرة بـ(قل)، والمقصود بها هو النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أنزل عليه الوحي على الحقيقة أو هو المختص بتلقي الوحي، أما في قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) فلما كان الآية مبدوءة بخطاب الجميع والمقصود بهم النبي صلى الله عليه وسلم

والمؤمنون معه، فقد آثرت اختيار حرف الجر (إلى)، لأن الإنزال لم يكن عليهم جميعا وإنما على بعضهم وهو الرسول، فلما كانت دلالة الاشتراك هنا حاضرة أوثر التعبير بـ(إلى).

وعلى هدي من هذه التفرقة بين التعبيرين يمكننا أن نلحظ علة اختلاف الأسلوب بين آية سورة الأنعام (وقالوا لولا أنزل عليه ملك)، وآية سورة الفرقان (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا)، فإن سياق الآيات في سورة الأنعام يشير إلى أنهم طلبوا نزول الملك على رسول الله على وجه الخصوص، ليكون نزوله دليلا على صدقه فيما يبلغ عن الله، ففي الآية السابقة يقول تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ...)، يعني لو نزل كتاب مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم ينطق بصدقه لكذبوه، ثم جاءت الآية التي نحن بصددها: (وقالوا لولا أنزل عليه ملك).

أما في سورة الفرقان فظاهر الآية أنهم طلبوا نزول الملك على أية حال ولو على جهة الاشتراك، نفهم ذلك من قوله تعالى (فيكون معه نذيرا)، وهذه المعية أو المصاحبة في مهام الدعوة تقوي دلالة الاشتراك في سياق الآية، مما يرجح التعبير بـ(إلى).

وقد تكرر التعبير (أنزل إلى) في القرآن الكريم مرات عديدة، وفي كل منها تظهر دلالة الاشتراك في المنزل، إما في الإيمان به، كقوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك)، أو في اتباعه كقوله تعالى (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم)، أو تبليغه كقوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)، أو العمل بمقتضاه كقوله تعالى (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا).

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين).

جاءت هذه الآية الكريمة تعقيبا على جملة من أفعال أهل الجاهلية التي أنكرها الإسلام وبين ضلالها وما تشتمل عليه من أنواع السفه والخسران، فكان منها قتل الأولاد- والإناث منهم خاصة- وتحريم ما أحله الله من أنواع الطيبات.

وقد حفلت الآية بوجوه من الخصائص البلاغية التي عبرت عن مقصودها أبلغ تعبير، فكان منها:

-الابتداء بحرف التحقيق (قد) للدلالة على أن خسران هؤلاء الجهلاء أمر ثابت متحقق لا شك فيه.

- استعارة لفظ (خسر) للدلالة على ما باء به هؤلاء الجاهلون من جراء أفعالهم المشينة، فالخسارة في التجارة هي ضياع رأس المال وليس مجرد عدم الربح، وهؤلاء لم ينتفعوا من أفعالهم بشيء في الدنيا، فلا قتل الأولاد حال بينهم وبين ما كانوا يحذرونه من الفقر، ولا تحريم ما أحل الله لهم عاد عليهم بشيء من النفع. ونلاحظ أن الفعل جاء مطلقا بدون مفعول به، والآية تشير بحذفه إلى أن خسارتهم عامة مطلقة في الدنيا والآخرة

- المبالغة في تبشيع فعلهم بالجمع بين السفه وعدم العلم.

- وضع الاسم الظاهر في موضع الضمير وذلك في قوله تعالى (افتراء على الله) فقد

كان يجوز في غير القرآن أن يقال: افتراء عليه، ولكن الآية آثرت إعادة اسم الله بلفظه ليكون وقعه أشد على النفس في استحضار عظمة من خالفوا أمره وافتروا كذبا عليه.

- قال الشهاب : "وفي قوله وما كانوا مهتدين بعد قوله قد ضلوا مبالغة في نفى الهداية عنهم، لأن صيغة الفعل تقتضي حدوث الضلال بعد أن لم يكن. فلذا أردف بهذه الحال لبيان عراقتهم في الضلال، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض».

٩

(ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح، وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)

توقف الإمام الزمخشري رحمه الله في كشافه عند لفظ (سكت) الوارد في صدر هذه الآية، وأفاض في تحليله البلاغي له، فقال: "هذا مثل، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا وألق الألواح، وجر برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة. وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: ولما سكن عن موسى الغضب، لا تجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة، وطرفا من تلك الروعة."

وقد زاد ابن المنير الإسكندري في حاشيته على الكشاف هذه الوقفة البلاغية بيانا وإيضاحا، فأشار إلى أن الحقيقة في هذا التعبير أن يقال (ولما سكت موسى عن الغضب) فجاء الكلام مقلوبا لنكتة بلاغية، تدل على شدة تمكن الغضب من موسى حتى كأنه هو الفاعل، يقول ابن المنير: "أن الغضب كان متمكنا من موسى حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر، حتى كأنه هو الذي أمره به".

ويتضح مما سبق أن الآية قد آثرت التعبير عن توقف الغضب وزوال أثره وسكون نفس موسى عليه السلام بعد ثورتها بلفظ (سكت)، لتترك في نفس المتلقي هذا الأثر الكبير الذي عبرت عنه هذه اللفظة البليغة، ولم يكن هذا الأثر ليقع في نفس المتلقي لو جاء التعبير على حقيقته اللغوية كأن يقال : ولما سكن الغضب، بلفظ (سكن) الذي ورد

في إحدى قراءات الآية الشاذة، بل لم تكن الآية لتصل إلى هذه الطبقة العالية من البلاغة لو كان التعبير بلفظ (سكت) مسندا إلى موسى عليه السلام، كأن يقال : ولما سكت موسى عن الغضب، لأن السكوت من لوازم الإنسان، وليس بدعا أن يوصف به، أما أن يسند السكوت إلى الغضب ففيه تلك الصورة الحية التي أشخصته إلى الوجود، وأظهرت تسلطه على نبي الله موسى وتصرفه في أفعاله لبعض الوقت.

١٠

(وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين)

لو كان يصح أن توصف بلاغة القرآن الكريم في كلمة واحدة فهي (الإيجاز)، فهي السمة الغالبة على نظمه البليغ، وهي الخصيصة التي كان العرب يتمادحون بها في بلاغاتهم ويستحسنونها في غالب كلامهم، فجاء القرآن على سننهم في التعبير والبيان، ليعجزهم عن الإتيان بمثله مع كونه جاريا على نمط كلامهم، وموافقا لما برعوا فيه من فنون القول وطرائق التعبير.

وفي هذه الآية الكريمة تتجلى خصيصة الإيجاز القرآني بما يظهر براعة البلاغة القرآنية وعلو شأنها، قال ابن قتيبة: "ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء [الأنفال: ٥٨]- لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها وتظهر مستورها، فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد، فخفت منهم خيانة ونقضا، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء".

ففي كل لفظ من ألفاظ الآية تقف جملة من المعاني المستترة التي لا تظهر في منطوقها، وإنما تلوح لمتأمل معانيها، فقوله تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة) يدل على أن هناك عهدا قائما بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قوم آخرين، وأنه قد اشتم منهم رائحة الخيانة، فأدخل ذلك الأمر خوف الخيانة في نفسه، وقد فسر لفظ الخوف في الآية بمعنى العلم، وهو تفسير لمبدأ الخوف وسببه، قال ابن عطية: "وخوف الخيانة بأن تبدو جنادع

الشر من قبل المعاهدين وتتصل عنهم أقوال وتحسس من تلقائهم مبادئ الغدر، فتلك المبادئ معلومة والخيانة التي هي غايتهم مخوفة لا متيقنة".

ثم تأتي جملة جواب الشرط (فانبذ إليهم على سواء) محملة بالدلالات المستفادة من ألفاظها المعدودة، فقد جاء أمرا بالنبذ، مقيدا بكونه إليهم أي إلى المعاهدين الذين لاحت منهم أمارات الخيانة، ولم تذكر الآية مفعول هذا الفعل (انبذ)، وقد دل سياق الآية على أن المنبوذ هو العهد الذي لم تصرح به جملة الشرط ولا جملة الجواب، كما دل لفظ النبذ على قوة الحض على طرح هذا العهد وكأن في ذلك إشارة إلى ما قد يتوجس منه المسلمون خيفة من نقض العهد، مع كون خيانة المعاهدين غير متيقنة، فجاء أمر الله ليرشد المسلمين إلى أن يكونوا هم المبادئين بالنقض متى لاحت أمارات الخيانة، وألا يخشوا من وراء ذلك مكروها يصيبهم.

وفي قوله تعالى (على سواء) إيجاز بليغ، إذ تدل هاتان اللفظتان -على قصرهما- على استواء طرفي العهد في العلم بنقضه، وما يستتبع هذا العلم من توقع الحرب في أي وقت، فالآية ترشد المسلمين إلى عدم مبادرة أعدائهم بالحرب حتى يعلموهم بنقض العهد وحتى يكونوا هم وأعداؤهم في العلم بهذا النقض على سواء، لأن مبادرتهم بالحرب قبل هذا الإعلام فيه خيانة ظاهرة، والله تعالى (لا يحب الخائنين).

١١

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ...)

من فنون البلاغة القرآنية ما يعرف بالتمثيل، وهو صورة مركبة -سواء أكانت تشبيها أم استعارة- تتداخل في طرفيها عناصر متعددة، بحيث يكون كل من المشبه والمشبه به مجموعة من العناصر والمفردات التي تتآزر فيما بينها لتكون صورة كلية في مخيلة المتلقي، ثم تأتي المقارنة التشبيهية بين مجموع هاتين الصورتين لتحقق أثرا كبيرا في توصيل المعاني والتعبير عنها.

وقد تكرر في القرآن الكريم تمثيل شأن الحياة الدنيا في ابتداء أمرها وازدهارها واغترار الناس بزخرفها ومتاعها وبهجتها ثم ما يعقب ذلك من الفناء والزوال، تكرر تمثيلها بدورة الحياة الطبيعية التي تبتدئ بنزول المطر على الأرض الهامدة وانبعاث الحياة فيها، ثم ما يعقب ذلك من الذبول والاصفرار، فالقرآن الكريم لم يشبه الحياة الدنيا بالماء تشبيه مفرد بمفرد، وإنما كانت الحياة الدنيا جزءا من مفردات المشبه، والماء جزءا من مفردات المشبه به، وهكذا ينبغي أن ينظر إلى التمثيل البلاغي.

ومن يتأمل تمثيلات القرآن أو تشبيهاته على وجه العموم، يجد أن كل تشبيه قد وضع في موضعه من سياق السورة التي ورد فيها، بحيث لا يمكن أن يوضع تمثيل موضع الآخر، حتى ولو اتفقا في طرفي التشبيه، وخير مثال على ذلك تشبيه شأن الحياة الدنيا بقصة نزول المطر وخروج النبات، فقد ورد هذا التمثيل في عدة مواضع من القرآن الكريم، أولها آية سورة يونس -التي نحن بصددها-، وثانيها آية سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة

الدنيا كماء أنزلناه من السماء ...) الآية،

ولما كان سياق سورة يونس يختلف عن سياق سورة الكهف، فقد ترك هذا الاختلاف أثره على نظم التصويرين فيهما وإن اشتركا في الإطار العام، فتباينا إيجازا وإطنابا تبعا لاختلاف سياق كل منهما، وليس الأمر -فيما أحسب- كما رأى الدكتور أحمد بدوي أن القرآن أوجز مرة في هذا التشبيه وأطنب أخرى، "ليستقر معناه في النفس، ويحدث أثره في القلب"، فإن ذلك غرض لا ينفك منه التمثيل حيث وقع، ولا يختص به في موضع دون آخر، ولذا فليس من المقنع أن يرد اختلاف الصورتين إليه أو إلى المبالغة في تحقيقه.

والمتأمل لسياق التمثيل في سورة يونس يجد أن السورة تتعرض لفكرة اغترار الناس بإمهال الله لهم وأنهم لا يعتبرون بما يجريه عليهم الله من الابتلاءات والفتن التي تضطرهم إلى الالتجاء إليه وإخلاص العبادة له، لكنه إخلاص مؤقت بزوال المكروه عنهم، ثم إن لهم بعد ذلك عودا إلى ما كانوا عليه من العصيان ونكران الجميل، نجد هذه المعاني في الآيات السابقة مباشرة للتمثيل (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر ف آياتنا ...) إلى قوله تعالى (ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون).

ثم جاء التمثيل عقب تلك المعاني والمشاهد ليكون تبيانا جليا لحقيقة الدنيا وتحذيرا للعقلاء عن الاغترار بها، وهذا السياق من شأنه أن تمتد فيه الصورة وتطنب في عرض تفاصيلها، فهي مثال لمفاتن الدنيا وأعراضها التي من شأنها أن تجذب النفوس وتتعلق بها الأماني، وإن كانت في نهاية الأمر تؤول إلى الزوال فينهدم حيئنذ كل ما تعلق بها من آمال وتنقطع أطماع المغترين بها حيث لا يجدي الندم شيئا ولا ينفع التحسر على ما

فرطوا فيه من أمر الآخرة.

وإذا كان السياق هنا قد سلط الضوء على جانب الاغترار بالدنيا وما فيها من الزخارف والمتع، فإن سياق سورة الكهف قد تركز على بيان سرعة فنائها وقلة بقائها وقصر أمدها، وكانت السورة قد حذرت في بداياتها من وقوع تلك النهاية (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) ثم قدمت مثلا قصصيا يعالج تلك الفكرة وهو مثل صاحب الجنتين وما كان من شأنه حيث أنكر فضل الله عليه معتمدا على ما في جنتيه من ثمار دانية تبرز لناظريه في أوج نضجها وتمام استوائها، ثم بيان نهاية هاتين الجنتين في لمحة خاطفة يصورها القرآن في إيجاز شديد (وأحيط بثمره)، وبعد أن تعرضت السورة لتلك المعاني جاء التمثيل بعقبها ليتمم سياق السورة ويتكامل في عرض مقاصدها، فتركز التمثيل على بيان سرعة زوال الدنيا التي يركن إليها الكافرون ويتناسون الخالق العلي صاحب الفضل الكامل في إيجادها وتمهيدها، وقد سيق التمثيل في ثلاث مشاهد متعاقبة متلاحقة، يقول عنها الأستاذ سيد قطب: " وانتهى شريط الحياة كله في هذه الجمل القصار، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة: (كماء أنزلناه من السماء) ف (اختلط به نبات الأرض) ف (أصبح هشيما تذروه الرياح) . ألا ما أقصرها حياة! ".

١٢

(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

أثارت هذه الآية إشكالا كبيرا يتعلق بعصمة النبي يوسف عليه السلام، إذ يدل قد يفهم من ظاهر الآية أنه عليه السلام هم بارتكاب الفاحشة مع زوجة العزيز (لولا أن رأى برهان ربه)، وهم الأنبياء بمثل هذا الفعل لا يجوز عليهم لأنهم معصومون عن الكبائر بإجماع الأمة وعن الصغائر أيضا في قول كثير من أهل العلم، ومن ثم فقد كثرت التأويلات حول هذه الآية المتشابهة لتوافق الأصل المحكم المتفق عليه وهو إثبات العصمة للأنبياء عليهم السلام.

ولم تسلم هذه التأويلات هي الأخرى من إشكالات عليها، ويمكن إجمالها في اتجاهين:

الأول: يرى أن الهم المسند إلى يوسف عليه السلام في هذه الآية لم يقع، وذلك بأن يكون الكلام واردا على التقديم والتأخير، والأصل: ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وقد أشكل الزجاج على هذا التأويل من جهة التركيب اللغوي، فما هو متعارف عليه في اللغة أن تقديم جواب لولا -إن صح وقوعه - لا تنفك عنه اللام، والآية واردة بغيرها (وهم بها) وليس (ولهم بها). غير أن أبا حيان قد انتصر لهذا الوجه وصححه لغويا بأن جواب لولا غير مصرح به لدلالة الجملة السابقة عليه، فقوله تعالى (وهم بها) ليس جواب لولا، ولكنه دليل الجواب، كما صحح غيره من المفسرين تقديم جواب لولا بدلالة قوله تعالى (إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها).

الثاني: يرى أن الهم المسند إلى يوسف عليه السلام قد وقع فعلا، لكنهم فسروه بما لا يتعارض مع يجب في حقه من العصمة، فالهم المقصود في حق يوسف عليه السلام ليس هما بالفاحشة، ولكنه هم بدفع امرأة العزيز عنه أو بضربها، ولما كانت الآية قد نسبت إليه مجرد الهم فهذا يعني أنه لم يضربها، وأن الذي حال بينه وبين أن ينفذ ما هم به هو رؤيته لبرهان ربه.

وقد اعتمد المفسرون في كلا الاتجاهين على التأويل البلاغي بالاستعانة بالأصول اللغوية لرد الإشكال عن الآية الكريمة:

ففي الاتجاه الأول يظهر اعتمادهم على التقديم والتأخير، وهو سمة أصيلة في بلاغة القرآن وفي البلاغة العربية عامة، ولا يخلو تقديم البلغاء من نكت ودلالات بلاغية تجعل مخالفته لأصل العبارة ذات قيمة مؤثرة في نظم الكلام، وهو ما يدفعنا للتساؤل عن القيمة البلاغية من تقديم جواب لولا في هذه الآية، وقد ذكر الرازي في جوابه أنه "بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته في النساء، وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل"، فتقديم هذه العبارة وقع لصرف توهم نقص فحولة يوسف عليه السلام، وهو مقصود يستدعي الاهتمام بتقديمه.

وفي الاتجاه الثاني يظهر اتكاؤهم على ما يعرف في اللغة بـ (المشاكلة)، وهي من فنون البديع ومعناها ذكر الشيء باسم غيره لوقوعه في صحبته، ومنه قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)، فسمى جزاء السيئة أو رد الاعتداء سيئة أيضا من قبيل المشاكلة اللفظية، وفي الآية التي نحن بصددها سمي توجه يوسف عليه السلام إلى دفع امرأة العزيز هما بها، لوقوعه في صحبة همها به، أي رغبتها في ارتكاب الفاحشة، ويلوح من وراء هذه المشاكلة

ملحظ بلاغي، فالآية أطلقت على فعل يوسف عليه السلام هما بها، لما كان مسببا عن هم المرأة، فلقوة الارتباط بين الفعلين لكون الأول سببا في الثاني سمي الأخير باسمه، وإن كان مغايرا له في الدلالة.

على أن من المفسرين من جعل هم المرأة أيضا كان هما بالضرب أو الإيذاء، وقد انتصر صاحب المنار لهذا الرأي، فقال في تفسيره: "لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه"، وعلى هذا التفسير فلا إشكال في الآية من جهة عصمة يوسف عليه السلام.

١٣

(وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد، أولئك الذين كفروا بربهم، وأولئك الأغلال في أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

بعد أن استهلت سورة الرعد بذكر عدد من الآيات الكونية الدالة على قدرة الله وتصرفه في الخلق، شرعت في ذكر المكذبين بدعوة الحق والمنكرين للبعث، متعجبة من حالهم، ومحذرة لهم من عاقبة ما هم عليه من التكذيب والإصرار على الباطل، فجاءت هذه الآية الكريمة لتعبر عن هذه المعاني من خلال جملة من الدلالات البلاغية المستفادة من نظمها العالي.

عبرت الآية الكريمة عن غاية التعجب من حال هؤلاء المكذبين المنكرين للبعث بهذا الأسلوب الشرطي الذي قصد إلى إظهار غاية التعجب من حالهم والإنكار عليهم، وذلك من خلال التعبير بالفعل (تعجب) مطلقا بغير تقييده بمفعول بعينه، أي إن كان منك عجب لأي شيء فلن يبلغ مثل العجب من حال هؤلاء المكذبين للبعث، فقد بلغوا غاية العجب لإنكارهم قدرة الله على البعث برغم كل ما يتراءى لهم من دلائل قدرته سبحانه مما سردت السورة بعضه في مطلعها، ولذلك فقد قصرت الآية العجب عليهم فقدمت الخبر على مبتدأه (فعجب قولهم)، كأن حالهم هو الجدير باستحقاق لفظ العجب.

وقد دلت الآية الكريمة على شدة تكذيبهم لأمر البعث بإعادة الهمزة في قولهم (أإنا لفي خلق جديد)، فقد تكررت همزة الاستفهام الإنكاري في هذه العبارة عقب قولهم (أإذا كنا ترابا وعظاما).

وبعد أن عرضت الآية لمقالتهم الموغلة في الإنكار والتكذيب عقبت عليها بثلاث جمل ترتبت على أحسن نسق وتركبت على أبلغ نظام، ففد دلت الجملة الأولى على تقرير حالهم وبيان سوء صنيعهم، وجمعت بين الإشارة إليهم (أولئك)، والإخبار عنهم باسم الموصول (الذين)، لإفادة استحقاقهم بما سيذكر لهم من الأوصاف مع كمال تمييزهم واستحضارهم في ذهن المتلقي.

ثم جاءت العبارة الثانية لتشير إلى السبب الذي حال بينهم وبين الإيمان، وهو شدة إعراضهم عن الحق وقوة تمسكهم بالباطل، وقد عبرت الآية عن هذا السبب بصورة مجازية، إذ صورتهم في حالهم تلك بمن قيد بالأغلال وفقد القدرة على الحركة، فهم في حال الإعراض والنفور عن اتباع الإيمان مقيدون بأغلال الضلال لا يملكون منها فكاكا.

ثم جاءت العبارة الثالثة لتعقب ببيان المصير الذي ينتظرهم والعقاب الذي يستحقونه جزاء كفرهم، وإصرارهم، وهما الأمران اللذان أشارت إليهما العبارتان السالفتان، وعبرت عنهم بأنهم (أصحاب النار)، ووصفتهم بأنهم (فيها خالدون)، وأتت بالضمير المنفصل (هم)، كل ذلك لبيان شدة التصاقهم بهذا المصير البائس، وعدم انفكاكهم عنه، هذا مع ما في تكرار اسم الإشارة من تأكيد اتصاف المكذبين بكل ما تضمنته هذه العبارات الثلاثة من المعاني.

١٤

(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد، فإياي فارهبون)

من أروع لفتات الإمام الزمخشري رحمه الله في تفسيره الكشاف، تنبيهه على الحكمة البلاغية من تأكيد النهي عن اتخاذ (إلهين) بلفظ (اثنين)، دون الاقتصار على (إلهين) فحسب، مع ما يدل عليه هذا اللفظ من دلالة التثنية، وكذلك في قوله تعالى (إله واحد)، مع ما يدل عليه لفظ (إله) من دلالة الإفراد، فيقول: "الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما، والذي يساق إليه الحديث هو العدد، شفع بما يؤكده، فدل به على القصد إليه والعناية به. ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله، ولم تؤكده بواحد: لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية".

وقد التفت صاحب الكشاف إلى أن السياق هنا في النهي عن اتخاذ إلهين اثنين، بالقصد إلى هذا العدد بخصوصه، وليس مطلق النهي عن الإشراك بالله، فالآية هنا بصدد الحديث عما تسرب إلى جزيرة العرب من بعض عقائد المجوس القائلين بإلهين أحدهما للخير والآخر للشر، ويتضح قصد الآية إلى إبطال هذه العقيدة الفاسدة من قوله تعالى بعدها: (وما بكم من نعمة فمن الله، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون)، فالله تعالى خالق الخير والشر، وليس للإنسان من ملجأ في الحالين إلا إلى الله وحده.

١٥

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا)

في هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء يظهر أسلوب القصر من خلال النفي والاستثناء، والمقصود قصر امتناع الناس عن اتباع الإيمان على تمسكهم بالشبهات الباطلة والافتراءات المزعومة، وقد ذكرت الآية من هذه الشبهات إنكارهم أن يبعث الله رسولا من البشر، ولما كانت هذه الشبهة غالبة عليهم في صدهم عن دعوة الحق فقد وقع القصر عليها، وإن كانت لهم شبهات أو موانع أخرى.

وقد توقف الإمام ابن الزبير الغرناطي عند هذه الآية في كتابه العظيم (ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل)، متسائلا عن الحكمة في اختلاف نظمها عن آية سورة الكهف (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا)، ومضى يعلل لورود عبارة (ويستغفروا ربهم) في آية الكهف دون آية الإسراء، فنظر إلى دلالة السياق وقال ما حاصله: إن سياق سورة الإسراء فيه إشارة إلى ما بلغ فيه الكافرون من عتو ونفور عن الإيمان، كما يظهر ذلك في قوله تعالى (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا) ، كما يظهر أيضا في سرد عدد من مقترحاتهم التي ذكروها تعتنا واستكبارا (وقالوا لن نؤمن لك حتى ....) الآيات، فكان ذلك تصريحا منهم بالكفر فلم يحسن ذكر الاستغفار في الآية، أما في سورة الكهف فلم تذكر الآيات من حالهم سوى الجدل، كما قال تعالى (ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) ، فناسب ذلك ذكر الاستغفار فيها.

هكذا قال رحمه الله، ويلوح في تعليل هذا الاختلاف أمر آخر، وذلك بالنظر إلى الأمر المقصور في الآيتين، ففي آية الإسراء كان قصر امتناع الإيمان على إنكار بعثة البشر، وفي آية الكهف كان قصر امتناع الإيمان على مجيء العذاب، ويبدو المقصور هنا مستغربا في الظاهر، إذ كيف يكون مجيء العذاب سببا في امتناعهم عن الإيمان؟ وهذا ما يرشد إلى أن المقصود من هذه العبارة (أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب) هو ما ذكره الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله في تفسيره، وهو أن "هذا تصوير محكم لحالهم في طغيانهم وغلوائهم كأنهم ينتظرون العذاب ولا ينتظرون الهداية، فشبه سبحانه وتعالى حالهم في الشر، واستمكانه في نفوسهم واسترسالهم في الطغيان بحال من يمنعهم الهداية مجرد انتظار العذاب، وهذا تصوير لإمعانهم في الطغيان والظلم والعدوان ومجاوزة حدود العقل والفكر."

وفي هذا السياق الذي يذكر فيه العذاب ما أحسن أن يذكرهم الله عز وجل بما يجب أن يكونوا عليه من التضرع والاستكانة، فجاء قوله تعالى (ويستغفروا ربهم) في موقعه البليغ، وأما آية الإسراء فلم يقع فيها ذكر العذاب أو الإشارة إليه، ولذلك لم يرد فيها ذكر الاستغفار، والله تعالى أعلم.

١٦

(وإن منكم إلا واردها، كان على ربك حتما مقضيا)

ذهب كثير من المفسرين -وعلى رأسهم شيخهم الطبري- إلى أن الخطاب في هذه الآية لعموم الناس، واستندوا إلى عدة أخبار مروية في تفسيرها تدل على أن جميع الناس سيمرون على نار جهنم -أعاذنا الله منها ووقانا حرها- وأن هذا المرور ربما كان هو المراد بجواز الناس على الصراط.

وفي الآية رأي آخر عزاه ابن الجوزي في زاد المسير إلى ابن عباس، وهو أن يكون الخطاب فيها خاصا بالكفار، وقد انتصر لهذا الرأي الشيخ المحقق محمد الطاهر بن عاشور صاحب التحرير والتنوير، وأفاض في بيانه وموافقته لسياق الآيات ومقصدها، فإن هذه الآية وما سبقها وما تلاها واردة في سياق الزجر والوعيد للمعاندين من أهل الكفر والتكذيب، بدلالة قوله تعالى (ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا..)، ولما خصت الآية السابقة عتاة المكذبين في قوله تعالى (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا)، عقبت الآية التي نحن بصددها بدفع توهم أن انتزاع هؤلاء العتاة هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب، بأن يحسبوا أن كبراءهم يكونون فداء لهم من النار أو نحو ذلك.

وذكر ابن عاشور رحمه الله أن الخطاب في هذه الآية الكريمة قد تحول من الغيبة في قوله (لنحشرنهم - ولنحضرنهم) إلى الخطاب، ارتقاء في المواجهة بالتهديد، حتى لا يبقى مجال لالتباس المراد من ضمير الغيبة، ثم تأتي الآية التالية (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين

فيها جثيا)، زيادة في الارتقاء بالوعيد بأنهم خالدون في النار، وإدماج ببشارة المؤمنين في أثناء وعيد المشركين.

ثم قال: "فليس الخطاب في قوله وإن منكم إلا واردها لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النار مع الكافرين ثم ينجون من عذابها، لأن هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة، ولأن فضل الله على المؤمنين بالجنة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقا واحدا، كيف وقد صدر الكلام بقوله (فوربك لنحشرنهم والشياطين) [مريم: ٦٨] وقال تعالى: (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) [مريم: ٨٥، ٨٦] ، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين.".أ.هـ.

أقول: ولعل هذا الرأي هو الأصح في نظام البلاغة القرآنية، فإن الاحتكام إلى السياق هو من أقوى المعينات على معرفة مقاصد الآيات ودلالاتها، وإن موافقة الأصول البلاغية في تفسير القرآن الكريم أولى من متابعة ظواهر الروايات والأخبار متى وقع بينهما التعارض، ومهما بلغت كثرتها أو قويت صحتها، وذلك أن القرآن الكريم هو الأصل الذي ترتكز عليه منظومة العقائد والتشريعات والآداب الإسلامية، والبلاغة فيه ليس ترفا لفظيا أو مجرد حلية يتزين بها نظمه الشريف، بل هي العمدة في إثبات إعجازه وتقرير حجته.

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين).

ما أشد وقع هذه الآية على الظالمين! وما أشد إشفاق المؤمنين منها! إن الله تبارك وتعالى يخبر فيها عن يوم القيامة، ذلك اليوم الذي توفى فيه كل نفس ما كسبت، وإذا كان الناس في الدنيا بين حاكم عادل أو جائر، ففي ذلك اليوم العظيم تتجسد غاية العدل وذروة الإنصاف، وكيف لا والله عز وجل هو المحاسب والقاضي بين العباد.

وقد احتفت الدلالات البلاغية التي أرشدت إلى هذا المعنى، ويمكن أن نتتبعها فيما يلي:

- البداية الشامخة التي تهتز لها قلوب العارفين بربهم، وذلك بنون العظمة (ونضع).

- جمع (الموازين)، للدلالة على أن لكل إنسان ميزانا يخصه، فتكثير الموازين في هذا السياق من تتمة تفخيم العدل في يوم القيامة .

- وفي تفسير آيات الوزن قولان مشهوران للمفسرين؛

- أحدهما وهو قول مجاهد والضحاك والأعمش، أن المراد من الميزان العدل والقضاء، قال الفخر الرازي: وكثير من المتأخرين ذهبوا إلى هذا القول وقالوا حمل لفظ الوزن على هذا المعنى سائغ في اللغة والدليل عليه فوجب المصير إليه، وأما بيان أن حمل لفظ الوزن على هذا المعنى جائز في اللغة، فلأن العدل في الأخذ

والإعطاء لا يظهر إلا بالكيل والوزن في الدنيا، فلم يبعد جعل الوزن كناية عن العدل.

- والثاني: أن يكون ذلك الوزن واقعا على الحقيقة؛ إما على صحائف الأعمال وإما بكيفية يعلمها الله.

- وصف الموازين بالقسط، والقسط في اللغة مصدر، والوصف بالمصادر يدل على أن الموصوف قد بلغ غاية ما يدل عليه معنى المصدر من الصفة، كما يقال: رجل عدل، للدلالة على بلوغه الغاية في هذه الصفة، وفي ذلك ما ليس في قولك: رجل عادل.

- تنكير لفظي نفس وشيء في قوله تعالى (فلا تظلم نفس شيئا) والتنكير في سياق النفي يدل على العموم، أي فلا تظلم أي نفس ولو شيئا يسيرا من الظلم.

- ضرب المثل بحبة الخردل للدلالة على الدقة المتناهية في الحساب الإلهي، الذي لا يفوت كبيرا من أعمال العباد ولا صغيرا، مهما بلغ صغره ولو كان كحبة الخردل، التي هي مضرب المثل في الصغر والحقارة، ولذلك جاء ختام الآية خير تعقيب على ما تضمنته من الإشارات الظاهرة إلى العدل المطلق في ذلك اليوم، فلا مزيد على علم الله وإحاطته بأعمال عباده، ولا مزيد على عدله في حسابه لهم.

١٨

(بل قلوبهم في غمرة من هذا، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون)

تصف الآية الكريمة من سورة المؤمنون حال المنغمسين في الكفر والضلال، الذين استحوذ عليهم الشيطان فألزمهم سبيل الغي، وقد عبرت الآية عن حالهم باطنا وظاهر:

أما حالهم في باطنه فإن قلوبهم في (غمرة)، وللمتدبر في كلام الله أن يقف عند هذا اللفظ وما يحمل من دلالة، فدلالة الغمر في اللغة تشير إلى انغماس المغمور وتغطيته، بحيث لا يظهر منه شيء، يقال غمره الماء إذا غطاه. ونهر غمر يغطي من دخله، وكذلك حال هؤلاء الكافرين في انغماسهم في الكفر وغمرتهم في الضلال، وقد آثر التعبير القرآني أن يأتي بحرف الجر (في) دون التعبير باسم المفعول مثلا كأن يقال: (بل قلوبهم مغمورة في الكفر)، وفي ذلك إشارة إلى تمكن الضلال من قلوبهم وشدة استيلائه عليها، والإشارة في قوله تعالى (من هذا) راجعة إلى ما سبق من أوصاف المؤمنين.

وأما حالهم في ظاهره فقد وصفت فيه الآية أعمالهم، فقال تعالى (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون)، وواضح من سياق الآية أن المقصود بهذه الأعمال هي ما يخالف أعمال المؤمنين الذين تعرضت الآيات السابقة لأوصافهم، فهم (الذين من خشية ربهم مشفقون ...)الآيات، وفي قوله تعالى (من دون ذلك) إشارة إلى بعد ما بين الفريقين في اختلاف أعمالهم، وكأن أعمالهم لتقاصرها عن بلوغ رتبة أحوال المؤمنين وأعمالهم لم تذكر لها الآية وصفا، واكتفت بدلالة التنكير في كلمة (أعمال) لتدل على حقارة هذه الأعمال ودونيتها.

وقد دلت الآية على تشبث الكافرين بهذه الأعمال وإلفهم لها وذلك بطريق التقديم البلاغي في قوله تعالى (ولهم أعمال)، فقد دل تقديم الجار والمجرور على اختصاصهم بهذه الأعمال وقوة نسبتها إليهم، وقريب من ذلك أيضا تقديم (لها عاملون)، وقد زاد في دلالة الاختصاص التعبير بالجملة الاسمية (هم لها عاملون)، للدلالة على دوامهم على تلك الأعمال وثباتهم عليها.

١٩

(أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

تأتي هذه الآية الكريمة متوسطة سياقا يغلب عليه الزجر والوعيد لتكون بشارة للمؤمنين وسط هذا الإنذار، والبشارة متى تخللت الوعيد كان ذلك إيناسا لقلوب المؤمنين وتذكيرا لهم بفضل الله عليهم أن صرف عنهم العذاب وأعاذهم منه، وكان ذلك أيضا زيادة في الوعيد بإدخال الحسرة على الكافرين أن حرمهم كفرهم وعنادهم من ذلك النعيم الكبير الذي يتمتع به المؤمنون.

ويأتي التعبير باسمي التفضيل (خير...وأحسن) متجردا عن معناه الحقيقي الدال على الاشتراك بين أمرين في صفة ما، وزيادة أحدهما على الآخر فيها، ولكن الخيرية والحسن منتفيان أصلا عن مستقر أهل النار ومقيلهم، وكأن في ذلك إشارة إلى أن الكافرين لما اختاروا طريق الكفر قد رأوا فيه خيرا وحسنا، فجاءت هذه المفاضلة بحسب ما توهموا.

وفي قوله تعالى (وأحسن مقيلا) إشارة بلاغية إلى سرعة انقضاء حساب المؤمنين ودخولهم الجنة في وقت لا يجاوز وقت القائلة أو منتصف النهار، فإن الآخرة ليس فيها نهار ولا ليل، وإنما ورد التعبير بالمقيل بطريق المجاز للدلالة على سرعة انقضاء حساب المؤمنين، فلا يتأذون من حر يوم القيامة ولا يعانون أهواله.

٢٠

(إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا أشد الحرص على هداية قومه إلى الإسلام، وكان يبذل في سبيل ذلك كل ما في وسعه، وكم كان ألمه وتأسفه على ما يواجهه به قومه من الصد والنفور، حتى وصفه الله تعالى بأنه يكاد يهلك نفسه بسبب عدم إيمانهم، فقال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)، وقال: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين).

وقد بلغ من شدة حرصه على هدايتهم أن يتوجه إليه الخطاب القرآني غير مرة، مذكرا له بما لا ينكره أو يجهله، وهو أن الهداية بيد الله وحده، وأنه مهما سلك من سبل الدعوة إلى الله ومهما تفنن في تأليف القلوب حوله فلن يملك هداية إنسان أو ضلاله، حتى ولو كان من أقرب الناس إليه.

ولما كانت حال النبي صلى الله عليه وسلم في شدة الحرص على هداية الناس إلى دين الله – لاسيما عشيرته الأقربين- فقد خاطبه القرآن الكريم خطاب من يتردد في الإقرار بأن الهدى بيد الله، وذلك لما ظهر من رغبته الصادقة وحرصه الشديد على استجابة قومه لدعوته، فكأنه في حاله تلك قد تناسى ما هو موقن به وتبدل يقينه ترددا أو شكا، وهو صلى الله عليه وسلم لم يتردد أو يشك في هذه الحقيقة التي يخبره الله بها (إنك لا تهدي من أحببت)، ولكنه لشدة حرصه على هدايتهم صار كأنه مترددا فيها، فجاء الخطاب القرآني ليذكره بها مستخدما الأسلوب الخبري المؤكد بإن، وهو إنما يساق في الأصل لمن يتردد في

مضمون الخبر أو يشك فيه أو ينكره.

وفي هذا المعنى وردت عدة آيات مماثلة في القرآن الكريم، يقول الله تعالى (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ما يندرون، وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)، ويقول(أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) ويقول (أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون)، ويقول (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).

والرسول صلى الله عليه وسلم في كل ذلك لا يتردد في أن الهداية بيد الله، ولكن مقصود الآيات الكريمة أن تسليه عن تكذيب قومه له وصدهم عن دعوته، مع ما تضمنته هذه الآيات من الإشارات البلاغية إلى وصف حالهم في إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالضلال، فإنهم لما عطلوا جوارحهم عن تلقي دعوة الإيمان والاستجابة لها صاروا كالموتى الفاقدين للحس، كالصم والعمي الفاقدين للسمع والبصر.

٢١

(وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)

من سمات البلاغة القرآنية أن الصفات التي تنسب إلى الأشخاص إذا كانوا غير متحققين بما تستوجبه من لوازم ومتعلقات فإن إثباتها لهم يصير في حكم النفي، ومن ثم فليس من المستغرب أن يثبت القرآن الكريم أفعالا لبعض الناس ثم ينفيها عنهم، دون أن يكون في ذلك وجه من التعارض أو الإشكال، فإن إثباتها لهم بحسب الظاهر، ونفيها عنهم بحسب الواقع والحقيقة.

ومن هذا الباب نقرأ قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فقد نفت الآية العلم عن أكثر الناس، ثم أثبتته لهم في الآية التي تليها (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا)، ومن الواضح أن الفعل المنفي ورد مطلقا بغير تقييد بمفعول معين، أما الفعل المثبت فقد قيد بكونه واقعا على (ظاهر من الحياة الدنيا)، وذلك أن أكثر الناس وإن تحققت فيهم صفة العلم فإنهم لم ينتفعوا بما يلزم عن هذه الصفة من النظر والتفكر في خلق الله وآياته، بل اقتصروا منه على ظاهر الحياة الدنيا وانشغلوا بزخارفها الخادعة عن التفكر في أمر الآخرة، فهم عنها غافلون.

ومنه أيضا قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، قال الزمخشري: "فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل، فكأن الله هو فاعل الرمية على الحقيقة، وكأنها لم

توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلا. "

ويدخل في ذلك أيضا ما يبدو من التعارض الظاهر بين قوله تعالى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان)، وقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)، فإن السؤال عن الذنوب لما كان متوجها للمذنبين على وجه لا يمكنهم فيه الإنكار، صار كأنه غير حاصل أصلا، فصح نفيه من هذه الجهة دون أن يكون ثمة تعارض بين آيات القرآن العظيم، والله تعالى أعلم.

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا)

يتشابه نظم هذه الآية في بعض أجزائه مع الآية الكريمة في سورة النحل (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)، وفيما بين الآيتين من الاختلاف يقف نظر المتدبر في آيات الله، ليتساءل عن سر هذا الاختلاف ودلالاته.

وقد أشار ابن الزبير الغرناطي إلى أن آية النحل ورد فيها التعبير بالظلم متناسبا لما سبق ذكره في سياق الآية من الحديث عن وأد البنات وهو من أبشع الظلم، أما آية فاطر فلم يكن في سياقها ما يشير إلى الظلم فوقع التعبير فيها بالكسب.

ويبقى بعد ذلك التساؤل عن سر الاختلاف بين الآيتين في قوله تعالى (عليها) و(على ظهرها)، وقد علله صاحب ملاك التأويل بأنه من باب التناسب اللفظي بين (بظلمهم - عليها) و (بما كسبوا - على ظهرها)، فلما كانت حروف (بظلمهم) قليلة ناسبها (عليها) لقلة حروفها، وعلى العكس من ذلك (بما كسبوا) التي تناسبها (على ظهرها)، أو كما قال رحمه الله.

غير أن النفس لا ترتاح لمثل هذا التعليل الشكلي، وإنما في الآيتين ملحظ آخر وهو أن ثمة فرقا بين كون الشيء على الأرض، وبين كونه على ظهر الأرض، فالتعبير الأول أعم وأشمل، وهذا الشمول من تتمة مناسبة سياق سورة النحل الذي ورد فيه لفظ الظلم،

فالمبالغة في وصف أفعال الناس المشينة كوأد البنات ونسبة البنات إلى الله تعالى، يناسبها المبالغة في وصف وقوع العذاب، وهذا ما تحقق بعموم قوله تعالى (عليها).أما التعبير بلفظ الكسب فليس فيه ما في التعبير بالظلم من المبالغة، فناسبه (على ظهرها)، فهو دون التعبير الأول في عمومه لدخول حرف الجر على (ظهر الأرض) وليس على مطلق الأرض.

٢٣

(جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب)

انظر إلى موقع هذه الآية الكريمة عقب ذكر مقالة الذين كفروا ووصف حالهم في إعراضهم ونفورهم من الحق، فقد عجبوا من بشرية الرسول، وعجبوا من التوحيد الذي دعاهم إليه، وركبوا متن الغرور إصرارا على الكفر ودفاعا عن الباطل، وبذلوا في سبيل ذلك طاقتهم وتناصحوا بالصبر عليه، فجاء الرد القرآني على هذا الموقف بعدة تساؤلات مسكتة، تسفه من شأنهم وتظهر غاية ضعفهم، فإنهم مهما بلغ شأنهم لا يملكون شيئا من خزائن الله في السموات والأرض، ثم يأتي الخطاب التعجيزي الذي يرد غرورهم ويلزمهم حقيقة قدرهم؛ فلو كان لهم من ملك السموات والأرض شيء فليرتقوا في الأسباب، أو ليظهروا شوكتهم التي يقفون بها في طريق الحق.

وهنا نلمح المفارقة الشاسعة بين هذا الخطاب التعجيزي (فليرتقوا في الأسباب)، وبين ما تلاه من وصف القرآن لحقيقة حالهم، فإن المتدبر للآيات ينتقل وعيه من أفق السموات والأرض وخزائن الله التي لا يملكون منها شيئا، إلى أنهم مجرد جند مهزوم ، لن يلبث أن يلحق بمن سلفه من الأحزاب الذين سبقوهم في اعتراض دعوة الحق.

وفي نظم الآية من الدلالات ما يظهر هذا المعنى ويجليه في النفس، فحذف المسند إليه وتنكير المسند في قوله تعالى (جند) فيه ما فيه من دلالة التحقير، ووصفهم بـ(ما) التي في غاية الإبهام ، ثم الإشارة إلى البعيد (هنالك) والبعد هنا -والله أعلم- ليس من قبيل التعظيم، وإنما استدعاه سياق الكلام وتلك النقلة من أفق السموات والأرض إلى أولئك

الجند المخدوعين بأنفسهم ، ثم إتباع ذلك بـالوصف (من الأحزاب) إشارة إلى عدم تميزهم عن غيرهم من أعداء الحق، ودخولهم في جملتهم، فهم كغيرهم من الأمم المعاندة، وسينالهم المصير نفسه، وهو مصير كل من اعترض الحق واستجمع قواه لنصرة الباطل والدفاع عنه.

(وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون)

تكلم المفسرون في هذه الآية وأفاضوا في بيان ما اشتملت عليه من دلالات القدرة الشاملة والتصرف الكامل لله عز وجل في عموم ملكه في السموات والأرض، وقد اتفقت كلمتهم على أن (القبضة) و(اليمين) الواردين في هذه الآية ليستا من قبيل الجوارح أو الأعضاء، فالله تعالى منزه عنها، وإنما هما مجازان عن عظيم قدرته وتصرفه في أمر السموات والأرض، وتوقف المتحرجون في القول بالمجاز عند إثبات اللفظ دون الخوض في معناه، إمرارا له كما جاء، مع التنزيه الكامل لله عز وجل عن مشابهة المخلوقين.

وفي الآية من فنون البلاغة ما يعرف بالتمثيل، وهو مجاز مركب، تتعدد مفرداته وتترابط للتعبير عن المعنى المراد، ويوضحه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله : "إن المعنى – والله أعلم- أن مثل الأرض في تصرفها تحت أمر الله وقدرته وأنه لا يشذ شيء مما فيها عن سلطانه عز وجل، مثل الشيء يكون في قبضة الآخذ له منا والجامع يده عليه، كذلك حقنا أن نسلك بقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) هذا المسلك، فكأن المعنى- والله أعلم- أنه عز وجل يخلق فيها صفة الطي حتى ترى كالكتاب المطوي بيمين الواحد منكم، وخص اليمين لتكون أعلى وأفخم للمثل".

وفي الآية ملحظ بلاغي يتمثل في تقييد هذا الخبر الإلهي -عن خضوع السموات والأرض لقدرة الله وانصياعها لأمره- بيوم القيامة، فالآية الكريمة تخبر أن الأرض جميعا

قبضة الله (يوم القيامة) والسموات مطويات بيمينه، وهل تتخلف الأرض جميعا والسموات عن الانصياع لأمر الله وقدرته في غير يوم القيامة؟! فما وجه التقييد بكون هذا الأمر حاصلا يوم القيامة؟

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره "وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضا، لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم، كما قال:(والأمر يومئذ لله) وقال:(مالك يوم الدين) ... ولذلك قال في الحديث:" ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض".

ولعل من أسباب هذا التقييد أيضا الإشارة إلى أن القدرة الإلهية تتصرف في الخلق كيفما تشاء، حتى في الوقت الذي تضطرب فيه النواميس وتتعطل القوانين الكونية التي اعتاد الناس أن يروا انتظام سير الكون عليها، ففي يوم القيامة يضطرب نظام الكون وتتعطل سننه الثابتة التي قد يتوهم الإنسان أنها لا تتخلف، وأنها إن اضطربت أو اختلت فإن السموات والأرض تخرجان عن السيطرة أو التحكم، فيأتي الخبر الإلهي ليؤكد على أن قدرة الله عز وجل لا يتخلف عن الانصياع إليها شيء من خلقه، حتى إن السموات والأرض في أشد ما تكون اضطرابا واختلالا في نواميسها ونظام سيرها لا تخرج عن الانصياع لأمر الله والخضوع لإرادته، فلا تعدو أن تكون كمثل الشيء يقبض عليه الإنسان أو يطويه بيمينه.

٢٥

(فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)

نزل القرآن الكريم على وفق ما تعارف عليه العرب في لغتهم من أساليب التعبير والبيان، فالعرب تسبغ على الجمادات بعض الصفات الإنسانية، وتتخذ من ذلك وسائل للتعبير عن بعض المعاني بطريقة أبلغ وأعلى من التعبير المباشر المألوف في الكلام، فإذا أرادوا أن يذكروا أحدا بتعظيم أو تحقير، أشركوا مظاهر الكون في هذا التعظيم أو التحقير، وأجروا عليها من لوازم الحياة والحس ما يجعلها تنفعل للأمر المراد تعظيمه أو تحقيره.

قال القرطبي: "وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي عمت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات. قال الشاعر:

فالريح تبكي شجوها ... والبرق يلمع في الغمامه

وقال آخر:

والشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وقالت الخارجية:

أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه. والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد".

ولا يبعد عن ذلك الفهم البلاغي لمثل هذا التعبير ما ورد في بعض الروايات من بكاء

مصلى المؤمن، وآثاره في الأرض، ومصاعد عمله، ومهابط رزقه في السماء، فهو من الباب نفسه، وذلك لأن حقيقة البكاء والجزع لا تكون إلا في الإنسان المتميز عن سائر الجمادات والحيوانات بالإحساس والشعور، فإسباغ هذه الصفات عليها من قبيل المجاز الذي هو من خصائص اللغة العربية وسماتها الأصيلة.

٢٦

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

يتكئ التركيب اللغوي (أفلا) على سمة إيجازية بليغة، فأهل اللغة يقولون إنه إذا اجتمع العطف والاستفهام قدم العاطف، وذلك مطرد في جميع أدوات الاستفهام نحو قوله تعالى (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله)، (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون)، وتتفرد الهمزة من بين أدوات الاستفهام بتقدمها على ثلاثة من حروف العطف وهي (الفاء والواو وثم)، وقد اختلف آراء اللغويين في تحليل هذا التركيب اللغوي، ويميل فريق منهم إلى تقدير معطوف عليه مقدر بين الهمزة وبين حرف العطف، وفي هذا التقدير ملمح بلاغي تتجلى فيه سمة الإيجاز.

فالتقدير في هذه الآية الكريمة (أيعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن)، وفي الاكتفاء بالمعطوف عليه دون المعطوف إيجاز بليغ، وذلك من خلال الاقتصار على التصريح بالمسبب دون السبب، لما بينهما من الترابط وقوة التلازم.

والغرض من هذا الاستفهام الوارد في الآية الكريمة هو توبيخ ما عليه المشركون أو المنافقون من الإعراض عن كتاب الله وعدم التدبر في معانيه والاستجابة لدعوته.

ثم عقبت الآية على هذا الاستفهام الإنكاري بنقلة إضرابية، فقد تصاعدت حدة الإنكار عليهم من الاستفهام إلى الخبر، فـ(أم) هنا بمعنى بل، أي (بل على قلوب أقفالها)، وليس الإخبار هنا عن مجرد الإعراض وترك التدبر، بل سلكت الآية فيه مسلك الاستعارة لتدل على شدة نفورهم وإعراضهم، فقد شبهت قلوبهم بالأبواب التي أحكم

غلقها بالأقفال.

وقد أشار صاحب الكشاف إلى دلالة التنكير في قوله تعالى (قلوب)، وقال إنه محتمل لإرادة النوعية أو التبعيض، ومعنى النوعية أن قلوبهم لشدة إعراضها كأنها نوع متميز من القلوب أو جنس قائم برأسه، ومعنى التبعيض أن هذا الوصف مقصود به طائفة من المعرضين وهم المنافقون خاصة.

كما أشار -رحمه الله ورضي عنه- إلى أن الإضافة في قوله تعالى (أقفالها) تدل على الاختصاص، أي الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح.

٢٧

(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم، إن ربك واسع المغفرة)

في هذه الآية الكريمة فائدة لغوية تتعلق بها القلوب وتشتاق بها إلى سعة عفو الله وعظيم رحمته؛ فإن أصل اللمم والإلمام الميل إلى الشيء وطلبه من غير مداومة، ومنه قول العرب ما يأتينا إلا لماما ، أي في الحين بعد الحين . ولا يطلق الإلمام إلا لمن قام بالفعل دون من هم به ولم يفعله ، لأن العرب لا تقول : ألم بنا إلا إذا فعل الإنسان، لا إذا هم ولم يفعله.

وبالنظر إلى هذا المعنى اللغوي لكلمة (اللمم) يكون الاستثناء في الآية متصلا -وهو أحد وجهي التفسير فيها- ويكون المراد به الذنب العظيم يلم به الإنسان المرة بعد المرة من غير مداومة فيتوب منه، ولا تقتصر دلالته على صغائر الذنوب، وقد ناسب هذا المعنى التعقيب بقوله تعالى (إن ربك واسع المغفرة)، وهذه المغفرة الواسعة يناسبها أن تتعلق بالذنوب العظيمة وليس مجرد الصغائر، فهي مغفرة تسع خطايا العالمين جميعا، صغيرها وكبيرها، لأنها منسوبة إلى الله عز وجل، خير الغافين وأرحم الراحمين. وصدق القائل: وتأتي على قدر الكرام المكارم.

٢٨

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خشب مسندة، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون)

نزلت سورة (المنافقون) لتفضح دخيلة نفوسهم التي يسترونها عن المسلمين بحسن المظهر وحلاوة القول، وجاءت هذه الآية الكريمة معبرة عن هذا المعنى الذي يدل على صفة أهل النفاق، ومحذرة من الاغترار بهم أو الانخداع بظاهرهم.

وقد تتابعت في هذه الآية الجمل الخبرية لتقرر حال المنافقين وتكشف سوء دخيلتهم، فأول ما نبهت إليه هو ما يظهر من حالهم من حسن المظهر وضخامة الأجسام وتمام البنية، وهو ما يثير إعجاب الرائي لهم ويلقي في نفسه مهابتهم، وذلك أول ما يخدع به منهم (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)، ثم تأتي ذلاقة اللسان وحلاوة المنطق لتكون سببا آخر لحصول الاغترار بهم (وإن يقولوا تسمع لقولهم).

والخطاب في هاتين الجملتين لغير معين، فكل أحد من المسلمين مخاطب به، وليس المقصود به خصوص النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الله تعالى كشف له المنافقين بأعيانهم.

وتستوقفنا في الآية مخالفة أداة الشرط في الجملتين، فقد ورد الشرط في أولاهما بإذا، وفي الثانية بإن، ولعل في ذلك -والله أعلم- مطابقة للواقع الذي تخبر عنه الآية، فإن رؤية المنافقين متحققة الوقوع فناسب التعبير عنها بإذا، أما كلامهم أو شروعهم في القول فهو أقل وقوعا من الرؤية، فناسب التعبير عنه بإن.

ولما كان مقصد الآية أن تنبه المسلمين إلى أخذ الحذر من وسائل الخداع التي يستعين بها المنافقون على التأثير فيهم، فقد جاءت بهذا التشبيه البديع الذي أسقط اعتبار المنافقين وأظهر حقيقة حالهم، فقد شبهتهم الآية بالخشب المسندة، وتكمن دلالة هذا التشبيه في أن الخشب متى كان نافعا فهو لا يترك مسنودا إلى حائط، بل يكون في سقف أو جدار حتى تكون له فائدة، أما أن يترك هكذا ملقى إلى جوار الحائط فلا يكون فيه فائدة، وقد لمحت الآية الشبه بين ضخامة أجسام المنافقين أو حسن منظرهم مع سوء مخبرهم وفساد طويتهم، وبين ضخامة الخشب المسندة وخلوها من الفائدة أو النفع.

ثم انتقلت الآية من التشبيه إلى التقرير، فدلت المسلمين على ما يدور في نفوس المنافقين من الخوف والهلع، بخلاف ما يظهرونه من حسن السمت وجمال القول، فإنهم (يحسبون كل صيحة عليهم)، وفي التعبير بالصيحة إشارة إلى شدة خوفهم حتى من مجرد ارتفاع الصوت في أي أمر من الأمور.

ثم عقبت الآية بتحذير المسلمين تحذيرا صريحا من عداوة المنافقين، وجاء التعبير عن هذه العداوة بطريق الحصر، وذلك بتعريف طرفي الإسناد، وبتعريف المسند بلام الجنس الدالة على بلوغه كمال العداوة (هم العدو)، وذلك لشدة خطورتهم على المسلمين حتى كأن ليس لهم أعداء سواهم، وقد استحقوا بذلك الدعاء عليهم بالإهلاك، والتعجب من سوء حالهم (قاتلهم الله أنى يؤفكون)

٢٩

(لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه

ثم إن علينا بيانه)

تشير الروايات المتعددة في سبب نزول هذه الآيات إلى أنها نزلت في أمر خاص بتلقي النبي الكريم لآيات القرآن من أمين الوحي، حيث كان من شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على ألا ينسى منها شيئا يبادر بترداد الآيات قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من تلاوتها، وقد أثار موقع هذه الآية من سورة القيامة إشكالا كبيرا يتعلق بمناسبتها لما قبلها وما بعدها من آيات السورة التي تدور حول الحديث عن اليوم الآخر وموقف الإنسان منه.

وقد قدم المفسرون وعلماء القرآن اجتهادات كثيرة في رد هذا الإشكال ولمح وجه الصلة بين هذه الآيات وبين موضوع السورة، ولكن بعضهم غفل عن مراعاة سبب نزولها ومضى يفسرها بتفسيرات تتجاهل هذا السبب وتتناسى تفسيرها في ضوئه.

إن تطلب وجه من المناسبة لهذه الآيات مع مراعاة المعنى المستفاد من روايات نزولها وإن كان بعيدا بحسب الظاهر عن موضوع السورة فإنه عند التدبر غير بعيد، وذلك باعتبارها تعرض نموذجا مقابلا لنموذج الكافر المذكور في صدر السورة والذي يستخف بوعيد الله ويسأل باستهانة عن موعد يوم القيامة، سؤال الجاحد المشكك في مجيئه، فإذا كانت هذه حاله فإن حال المؤمنين على النقيض منها، حيث يستقبلون آيات الله بالتعظيم والخشية، ويحرصون على تلقيها بقوة واستظهارها لتدبر معانيها، وقد أشار أبو حيان إلى

هذا الوجه من التناسب بقوله: "ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه تعالى لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضا عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه، ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها، وبضدها تتميز الأشياء".

وعلى هذا الوجه يتصل نظم الكلام وتتضح مناسبة ترتيبه مع مراعاة سياق النزول وعدم إهماله في فهم دلالة الآيات، فتكون العلاقة الرابطة بين أجزاء الكلام هي علاقة التقابل بين حالي الكافر والمؤمن.

٣٠

(ما ودعك ربك وما قلى)

إن مراعاة الفاصلة القرآنية مقصد بلاغي معتبر في بلاغة القرآن الكريم، وليس مما ينكر أن يتغير ترتيب بعض الجمل لتوافق رؤوس الآيات، على نحو ما يظهر من مخالفة ترتيب اسمي النبيين الكريمين (موسى وهارون) في فاصلة سورة طه، فللفاصلة وقعها على الأذن وتأثيرها في النفس بواسطة هذا التوافق الإيقاعي بين رؤوس الآيات.

غير أن مراعاة الفاصلة لا يخلو -في أحيان كثيرة - من أن تقترن به نكات بلاغية تكاد تصرف النظر إليها دون غيرها، ولعل ذلك هو ما أغرى بعض العلماء بالقول إن مراعاة الفاصلة وحدها أمر غير معتبر في البلاغة القرآنية.

وفي هذه الآية الكريمة من سورة الضحى تتجلى بلاغة الفاصلة القرآنية كأظهر ما تكون، فقد حذفت الآية مفعول (قلى)، فلم تقل (ما ودعك ربك) وما قلاك، وحصل من وراء ذلك اتفاق في رؤوس الآي في السورة الكريمة (والضحى - سجى - قلى - الأولى - فترضى).

ولكن الأمر لم يقتصر عند حد مراعاة الفاصلة -وهو أمر له قيمته في البلاغة- وإنما احتف به ملمح بلاغي بديع، يستولي على لب المتأمل في بلاغة السورة ونظمها العالي، وقد أوضحته غاية الإيضاح العالمة الجليلة الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابها القيم (التفسير البياني للقرآن الكريم)، فقد قالت -رحمها الله وأجزل لها المثوبة- في تعليل هذا الحذف إنه " تقتضيه حساسية معنوية مرهفة، بالغة الدقة في اللطف والإيناس، هي

تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس: ما قلاك. لما في القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض. أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك. بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة واللقاء."

فسبحان من علم القرآن، وخلق الإنسان، وعلمه البيان.

وبعد

فإن بلاغة والقرآن معين لا ينضب، ومورد عذب لم تزل أجيال من العلماء والمفسرين تتابع على النهل منه، فما ارتووا ولا جف المورد، وكيف لا وهو كلام رب العالمين الذي أنزله متحديا به الإنس والجن، ومعجزا لأرباب البيان في كل عصر، ولقد صدق عليه وصف النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، أنه "لا يخلق على كثرة الرد"، فاللهم اجعلنا من أهل القرآن المتدبرين لمعانيه العاملين بما فيه، ولا تجعلنا من المحرومين.

حسام الدين طاهر عبد المنعم

رمضان ١٤٤٠هـ - يونيو ٢٠١٩م